عباس الزبيدي

مؤيد
صلى الله عليه وآله
بن جعفر
عليه السلام

محات في المنهج التربوي للإمام الكاظم (عليه السلام)

من البحوث الفائزة في المؤتمر السنوي الثالث الدولي
الذكرى (١٢٥٠) لاستشهاد الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)

بتاريخ ٣-٤/ رجب/ ١٤٣٣ للهجرة الموافق ٢٥-٢٦/ ٥/ ٢٠١٢

في مدينة الكاظمية المقدسة

لمحات

في المنهج التربوي للإمام الكاظم (عليه السلام)

عباس الزيدي

بِسْمِهِ تَعَالَى
لَمَحَاتٍ فِي
الْمَنْهَجِ التَّرْبَوِيِّ لِلْإِمَامِ الْكَاطِمِ (عَلَيْهِ السَّلَام)

شهد عصر الإمام الكاظم (عليه السلام) تحديات جسيمة، على عدة أصعدة، سياسية واجتماعية وفكرية، فهناك الثورات في كافة الاتجاهات، وخاصة تلك التي انطلقت من (المدينة)، حيث كان يقيم الإمام (عليه السلام)، وكذلك العراق، بإقليميه الكبيرين (الكوفة والبصرة)، ولا نحتاج الى توصيف علاقة الإمام بهذين الإقليمين، وخاصة الكوفة، التي كانت مركز قواعد الإمام، وخواص أصحابه، فكانت اتصالاته وإيصال صوته ومنهجيته، تتم عن طريق أصحابه الكوفيين لا غير، أما المدينة فكانت تسير بكافة الاتجاهات إلا اتجاه أهل البيت كما هو من واضحات التاريخ.

البداية :

عاصر الإمام الكاظم في حياة أبيه (عليه السلام) فترة الانتعاش الفكري والحرية النسبية التي نتجت عن ضعف الدولة الأموية وانحلالها في آخر سنواتها، كما عاصر بدايات دولة بني العباس، والتي استمر ضعفها إلى قيام ثورة أبناء الحسن (عليه السلام)، فقد ثار محمد بن عبد الله بن الحسن في المدينة، وبعد مقتله ثار أخوه إبراهيم في البصرة، وكاد إبراهيم أن يطيح بحكم أبي جعفر المنصور بعد الهزيمة التي لقيها جيش بني العباس في البصرة، ولكن مقتل إبراهيم المفاجئ أدى إلى تشتت الثوار واندحار ثورتهم، وشهد اعتقال أبناء الحسن وإعدامهم قبل ذلك.

هذه الثورة أدت إلى استكلاب السلطة، مما انعكس بشكل حاد ضد كل المنتسبين لأهل البيت، وخاصة عظيمهم الإمام الصادق (عليه السلام) الذي ما فتئ المنصور يعتقله ثم يخلي سبيله، بواعز الإحساس بالنقص أمام مركز الإمام في المجتمع الإسلامي بالتالي القلق المستمر من وجود خطر دايم، وانتهى الأمر باغتيال الإمام الصادق (عليه السلام) بالسم.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، كما روى الشيخ الكليني :

((عن أبي أيوب النحوي قال : بعث إلي أبو جعفر المنصور في جوف الليل فأثيته، فدخلت عليه وهو جالس على كرسي وبين يديه شمعة وفي يده كتاب، قال : فلما سلمت عليه رمى بالكتاب إلي وهو يبكي، فقال لي : هذا كتاب محمد بن سليمان يخبرنا أن جعفر بن محمد قد مات، فإننا لله وإنا إليه راجعون — ثلاثاً — وأين مثل جعفر؟، ثم قال لي : أكتب، قال : فكتبتُ صدر الكتاب، ثم قال : أكتب إن كان أوصى إلى رجل واحد

بعينه فقدّمه واضرب عنقه، قال : فرجع إليه الجواب أنه قد أوصى إلى خمسة وأحدهم أبو جعفر المنصور،
ومحمد بن سليمان، وعبد الله، وموسى، وحميدة^١)).

وجاء في رواية أخرى أن المنصور عندما علم بمضمون الوصية قال : ((ليس إلى قتل هؤلاء سبيل))^٢.
وهذا يفسر الأجواء المضطربة التي أعقبت وفاة الإمام الصادق (عليه السلام)، ولكنه اتخذ خطوة موهبة
خلطت الأوراق على السلطات، كما لاحظنا في الرواية، فهو من ناحية شتت أذهان السلطات عن الوصي
من بعده، ومن ناحية أخرى أشار إلى الإمام من بعده، وهو الإمام الكاظم بذكره أولاً وبترجيح كفته بذكر
والدته حميدة، وهذا ما لا يلتفت إليه إلا خاصة أصحابه، الذين يعرفون ما خفي من مقاصدهم عن باقي
البشر.

ومن ناحية أخرى كان لوجود عبد الله الأفطح ضمن الموصى إليهم حصانة للإمام الكاظم، لأنه أكبر أبنائه،
بالتالي ستكون أنظار السلطات باتجاهه، وهو كما يُعرف عنه لم يكن أهلاً للإمامة ولم يكن ليشكل أي خطر
يذكر على السلطات، فانصرفت عن التركيز على شخص آخر.

وقد اتخذ الإمام الكاظم (عليه السلام) خطوات استثنائية بدعوته وسط هذا الوضع المرعب، كما روى الشيخ
الكليني :

((عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن أبي يحيى الواسطي، عن هشام بن سالم^٣ قال :
كنا بالمدينة بعد وفاة أبي عبد الله "عليه السلام" أنا وصاحب الطاق^٤ والناس مجتمعون على عبد الله بن جعفر
أنه صاحب الأمر بعد أبيه، فدخلنا عليه أنا وصاحب الطاق والناس عنده، وذلك أنهم رَووا عن أبي عبد الله
عليه السلام أنه قال : إن الأمر في الكبير ما لم تكن به عاهة، فدخلنا عليه نسأله عما كنا نسأل عنه أباه،
فسألناه عن الزكاة في كم تجب؟، فقال : في مائتين خمسة، فقلنا : في مائة؟، فقال : درهمان ونصف، فقلنا
: والله ما تقول المرجئة هذا، قال : فرفع يده إلى السماء فقال : والله ما أدري ما تقول المرجئة. قال :
فخرجنا من عنده ضلالاً لا ندري إلى أين نتوجه أنا وأبو جعفر الأحول، فقعدنا في بعض أزقة المدينة باكين
حيارى لا ندري إلى أين نتوجه ولا من نقصد؟، ونقول : إلى المرجئة؟ إلى القدرية؟ إلى الزيدية؟ إلى
المعتزلة؟ إلى الخوارج؟، فنحن كذلك إذ رأيت رجلاً شيخاً لا أعرفه، يومي إلي بيده فخفت أن يكون عيناً
من عيون أبي جعفر المنصور، وذلك أنه كان له بالمدينة جواسيس ينظرون إلى من اتفقت شيعه جعفر "عليه
السلام" عليه، فيضربون عنقه، فخفت أن يكون منهم، فقلت للأحول : تتح فإني خائف على نفسي وعليك،
وإنما يريدني لا يريدك، ففتح عني لا تهلك وتعين على نفسك. ففتحى غير بعيد وتبع الشيخ وذلك أني
ظننت أني لا أقدر على التخلص منه، فما زلت أتبعه وقد عزمت على الموت، حتى ورد بي على باب أبي

^١ - الكليني، الكافي ج ١ ص ٣١٠.

^٢ - الكليني، الكافي، ج ١ ص ٣١١.

^٣ - هشام بن سالم الجواليقي الجعفي ، مولا هم كوفي ، أبو محمد.

^٤ - هو محمد بن علي بن النعمان أبو جعفر الأحول يلقب بمؤمن الطاق وصاحب الطاق.

الحسن "عليه السلام" ثم خلّاني ومضى، فإذا خادم بالباب فقال لي : أدخل رحمك الله، فدخلت فإذا أبو الحسن موسى "عليه السلام" فقال لي ابتداء منه : لا إلى المرجئة، ولا إلى القدرية، ولا إلى الزيدية، ولا إلى المعتزلة، ولا إلى الخوارج، إلي إلي. فقلت : جعلت فداك مضى أبوك؟، قال : نعم، قلت : مضى موتاً؟، قال : نعم، قلت : فمن لنا من بعده؟، فقال : إن شاء الله أن يهديك هداك، قلت : جعلت فداك إن عبد الله يزعم أنه من بعد أبيه، قال : يريد عبد الله أن لا يعبد الله، قال : قلت : جعلت فداك فمن لنا من بعده؟، قال : إن شاء الله أن يهديك هداك، قال : قلت : جعلت فداك فأنت هو؟، قال : لا، ما أقول ذلك، قال : فقلت في نفسي لم أصب طريق المسألة، ثم قلت له : جعلت فداك عليك إمام؟، قال : لا. فداخني شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل إعظماً له وهيبة أكثر مما كان يحل بي من أبيه إذا دخلت عليه، ثم قلت له : جعلت فداك أسألك عما كنت أسأل أباك؟، فقال : سل تخبر ولا تدع، فإن أذعت فهو الذبح، فسألته فإذا هو بحر لا ينزف، قلت : جعلت فداك شيعتك وشيعة أبيك ضلال فألقى إليهم وأدعوهم إليك، وقد أخذت عليّ الكتمان؟، قال : من أنست منه رشداً فإلق إليه وخذ عليه الكتمان فإن أذعوا فهو الذبح، - وأشار بيده إلى حلقه - قال : فخرجت من عنده فلقيت أبا جعفر الأحول فقال لي : ما وراءك؟، قلت : الهدى، فحدثته بالقصة قال : ثم لقينا الفضيل وأبا بصير^٥ فدخلا عليه وسمعا كلامه وسألاه وقطعا عليه بالإمامة، ثم لقينا الناس أفواجاً فكل من دخل عليه قطع إلا طائفة عمار^٦ وأصحابه، وبقي عبد الله لا يدخل إليه إلا قليل من الناس، فلما رأى ذلك قال : ما حال الناس؟، فأخبر أن هشاماً صدّ عنك الناس، قال هشام : فأقعد لي بالمدينة غير واحد ليضربوني^٧.

نلاحظ في هذه الرواية الصحيحة المهمة ما يلي :

- الأجواء الأمنية مضطربة، وهناك حالة ترقب، سواء من قبل السلطات أو من قبل أصحاب الإمام، في الساعات الأولى لوفاة الإمام الصادق (عليه السلام)، خاصة بعد أن عرفنا فحوى كتاب المنصور إلى عامله على المدينة، وكذلك ما جاء في الرواية (فنحن كذلك إذ رأيت رجلاً شيخاً لا أعرفه، يومي إلي بيده فخفت أن يكون عيناً من عيون أبي جعفر المنصور، وذلك أنه كان له بالمدينة جواسيس ينظرون إلي من اتفقت

^٥ - (قال بعض الأصحاب أراد بهما الفضيل بن عثمان الأعور المرادي وأبا بصير ليث المرادي)). شرح أصول الكافي، مولى محمد صالح المازندراني، ج ٦ ص ٢٩٩.

^٦ - عمار بن موسى الساباطي وهو وأصحابه فطحية.

^٧ - الكليني، الكافي، ج ١ ص ٣٥١ - ٣٥٢. ورواها الصفار في بصائر الدرجات ص ٢٧ - ٢٧١ بسند آخر : حدثنا الهيثم النهدي، عن إسماعيل بن سهل، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم. ورواها ابن بابويه في الامامة والتبصرة ص ٧٢ - ٣٧ بسنده عن : علي بن إبراهيم القمي، عن أبيه، عن محمد بن أبي عمير، عن هشام بن سالم. ورواها الشيخ المفيد في الارشاد ج ٢ ص ٢٢١ - ٢٢٣ عن استاذة ابن قولويه عن الكليني بنفس سند الكافي. والصدوق في كمال الدين وتمام النعمة ص ٧٤.

شيعة جعفر (عليه السلام) عليه، فيضربون عنقه)، ولكن ديدن أصحاب الأئمة أن يركبوا المخاطر في سبيل معرفة الإمام والإقتداء به ونشر مذهبه.^٨

— إن المهتمين بشأن الإمامة هم أهل العراق (خاصة أهل الكوفة) وهذا بيّن من خلال الرواية فكل من هشام بن سالم، ومحمد بن النعمان الأحول، والفضيل، وأبي بصير، الذين كانوا مندوبين عن الكوفيين لتشخيص الإمام الحالي.

— كان هذان الصحابييان من علماء الصحابة، ولم تكن لتتطلي عليهم أية دعوى، ولكنهم توجهوا كباقي الناس إلى أكبر أبناء الإمام المتوفى، وهو في الرواية (عبد الله الأفطح)، فاخبروه فوجدوه ضحل المستوى، وهذا أحد مصاديق العاهة التي وردت في النص، فإن المتبادر أن العاهة إنما تكون بدنية، ولكن مقاصد الأئمة لا بدّ أن تفهم بشكل أوسع، فالعاهة الفكرية هي المقصودة بالدرجة الرئيسية في هذه الرواية.

— لم يكن المنصور فقط له عيون في المدينة، إذ نرى أن الإمام الكاظم هو الآخر كانت له عيون ترقب أصحاب أبيه المخلصين، وهو الشيخ الذي أومئ لهشام بن سالم، وهذا يدل على حرص الإمام على إيصال صوته مع ما في ذلك من مخاطر، كما أن هناك من أصحابه من نجهلهم ولا نعرف عنهم شيئاً كهذا الشيخ المجهول، بالتالي نعرف أن الإمام قد اتخذ احتياطاته في وقت سابق على وفاة أبيه، وهذا أحد الأساليب التي اتخذها طوال فترة إمامته.

— كما أن اختيار الكوفيين لهشام والأحول والفضيل وأبي بصير لم يكن عفويّاً فهؤلاء الأجلة كانوا من العلماء الذين يفهمون لحن القول، ويفهمون من الإشارة ما لا نفهمه بعبارات جمّة.

ونفس الفكرة تأتي هنا باختيار الإمام لهما دون غيرهما، حتى كأنه كان ينتظر قدومهما، ومن ظاهر الرواية فإن رسول الإمام إليهما (وهو الشيخ المجهول) كان يعرف هشام على الأقل، فربما كان أحد العاملين في خدمة الإمام الصادق "عليه السلام" فكان يعرفهم، ولكنهم لا يعرفونه، وهذا ليس بغريب، فإنهم "عليهم السلام" لطالما اتخذوا مثل هذه الاحتياطات.

بداية، نفى الإمام الكاظم الإمامة عن أخيه عبد الله بقوله (يريد عبد الله أن لا يُعبد الله)، ولكنه في نفس الوقت لم يدعها لنفسه صراحة، وهشام ليس بسيط الإدراك ولكنه أخطأ المسألة، كما قال (قلت : جعلت فداك فمن لنا من بعده؟، قال : إن شاء الله أن يهديك هداك، قلت : جعلت فداك فأنت هو؟، قال : لا، ما أقول ذلك، قال

^٨ — روى الخطيب البغدادي عن تلك الفترة في ترجمة ((جعفر بن زياد الأحمر الكوفي)): وكان قد خرج إلى خراسان فبلغ أبا جعفر المنصور عنه أمر يتعلق بالإمامة وأنه ممن يرى رأى الرافضة، فوجه إليه بمن قبض عليه وحمله إلى بغداد، فأودعه السجن دهرًا طويلاً، ثم أطلقه.

قرأت في كتاب أبي الحسن بن الفرات بخطه، أخبرنا محمد بن العباس الضبي الهروي حدثنا أحمد بن محمد بن ياسين أخبرنا حنيد بن حكيم في كتابه، حدثنا حسين بن علي بن جعفر الأحمر قال : كان جدي من رؤساء الشيعة بخراسان، فكتب فيه أبو جعفر إلى هراة فأشخص إليه : في ساجور مع جماعة من الشيعة، فحبسوا في المطبق دهرًا طويلاً، ثم أطلقوا. تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٦١ — ١٦٢.

: فقلتُ في نفسي لم أصب طريق المسألة، ثم قلت له : جعلت فداك عليك إمام؟، قال : لا. فداخني شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل إعظماً له وهيبة أكثر مما كان يحل بي من أبيه إذا دخلت عليه). فأبي حوار دقيق هذا وأي متحاورين، استطاع فيه الإمام الكاظم أن يحسم الأمر بالقول بإمامته من دون أن يترك مستمسكاً ضدّه، ولم تكن خشيته من هشام قطعاً، ولكن الحيلة ضرورة، وربما كان هناك من يستمع، أو يزل لسان هشام فينقل كلمة عن الإمام إلى أصحابه فتنتشر، فتكون العواقب وخيمة، ولا شك أن انتشار إمامته سيكون أمراً مفروغاً منه، ولكنه (عليه السلام) أراد أن يتجاوز هذه المرحلة الحرجة، وهذا ما حصل.

لذلك كان هشام يركّز على منهجية الدعوة، إذ لم يكن يريد أن يقوم بخطوة غير محسوبة، ويحاول التقيّد بتوجيهات الإمام حرفياً، فسأله (جعلت فداك شيعتك وشيعة أبيك ضالّ، فألقى إليهم وأدعوهم إليك؟، وقد أخذت علي الكتمان؟، قال : من آنتست منه رشداً فائق إليه وخذ عليه الكتمان فإن أذاعوا فهو الذبح، وأشار بيده إلى حلقه).

فكان التوجيه أن لا بد من إيصال الدعوة، ولكن في نفس الوقت أن تكون بحذر شديد وتدرّج، وأن يختار هشام حسب التوصية (من آنتست منه رشداً)، أي يكون واع كتوم، وفي نفس الوقت أكّد على هشام مخاطر الإنفلات والثرثرة لأن العواقب خطيرة (فإن أذاعوا فهو الذبح).

ويتضمن هذا الحدث ثلاث توجيهات تربوية، تنظيمية وفكرية وسياسية :

التنظيمية : اتصال السلسلة الحلقية، فهناك وسيط لا يُعرف يكون واسطة الإمام مع أصحابه، وهي منهجية جديدة وسط هذه الأوضاع الخطيرة، إذ لم تكن هناك حاجة في ما سبق من الأئمة إلى مثل هذا الحذر الشديد.

ككيف يمكن التصرف وسط الرقابة الصارمة، وكيف يربي أصحابه على أسلوب لم يتعودوا عليه؟، في حال استمرارية الأعداء في قصد النيل منهم، ليس في زمنه فحسب وإنما على طول الزمن، وهذا الأسلوب سنراه لاحقاً مع باقي الأئمة، ونعتبره منهجية أسّست لحقبة لاحقة، خاصة عصر الإمامين العسكريين، وعصر الغيبة الصغرى الذي ارتفع فيه مستوى الإجراءات الأمنية لدرجة عالية، حتى نرى أن بعض رسل الإمام المهدي (عليه السلام) من النساء المجهولات.⁹

كما أكّد الإمام على جانب آخر وهو الكتمان، الذي يعتبر حالة نادرة بين البشر وخاصة بين أصحاب الأئمة إلا الأندر منهم وقد جاءت في هذا المعنى عدة روايات منها عن الصفار :

((يعقوب بن يزيد، عن ابن أبي عمير، عن بكر بن محمد الأزدي، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : قلت له : ما لنا منْ يحدثنا بما يكون كما كان علي (عليه السلام) يحدث أصحابه؟، قال :

⁹ — أنظر كتاب الغيبة للشيخ الطوسي.

بلى والله، وإن ذاك لكم، ولكن هات حديثاً واحداً حدّثتكم به فكتمتم؟. فسكت، فوالله ما حدّثني بحديث إلا وقد وجدته حدّثت به)).^{١٠}

وروى الحسن بن سليمان :

((قال أبو عبد الله (عليه السلام) إن الله تبارك وتعالى عيّر قوماً بالإذاعة فقال : "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ"^{١١} فإياكم والإذاعة)).^{١٢}

((عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : قال من أذاع علينا شيئاً من أمرنا فهو ممن قتلنا عمداً ولم يقتلنا خطأ)).^{١٣}

أما الفكرية، فإن الإمام يُعرف أساساً من خلال علمه، وهذا لا يتم إلا إذا كان السائل بمستوى يعرف ما يسأل من ناحية، ويقمّ دقة الجواب من ناحية أخرى.

ف فشل عبد الله الأفطح فشلاً مخزياً أمام امتحان هشام، وبالتأكيد فإن هشام أعلى قدراً منه، ولكن التكليف الذي دفع هشام إلى مقابلة عبد الله أول الأمر وفق الضوابط، وهي القاعدة الأولى هنا، أن يكون أكبر أبناء الإمام المتوفى، ومن ثم تبين أن الأكبر يعاني من العاهة وهي هنا الجهل، ولكن ذلك لم يمنع من أن يكون لعبد الله الأفطح أتباع سموا بعد ذلك بالفطحية، لأنهم تشبثوا بالنص (الابن الأكبر) على ظاهر ألفاظه، ولا شك أنهم من جهلة المجتمع، لأنهم لو كان لهم نصف ما لهشام من العلم لأدركوا أن هذا الرجل لا يصلح للإمامة.

ونلاحظ أن قاعدة الابن الأكبر أخذت منحى آخر في قضية إسماعيل أكبر أبناء الامام الصادق (عليه السلام) الذي توفي في حياة أبيه مع ذلك تمسكت بها طائفة على إطلاقها فاتخذت من ولد اسماعيل أئمة ونشأت منها حركة قامت بتأسيس مملكة كبيرة في أفريقيا شملت لاحقاً عدة مناطق في آسيا، وهي دولة الفاطميين.

عندما توجّه هشام الى الإمام الكاظم وعلم بأنه يقول بالإمامة لنفسه لم يكتف هشام بهذا فقال (جعلت فداك أسألك عما كنت أسأل أباك؟)، فقال : سلّ تُخبر ولا تُذع، فإن أذعت فهو الذبح، فسألته فإذا هو بحر لا ينزف). فمجرد إدعاء الإمامة وقيادة المجتمع الإسلامي ليس دليلاً عليها، والأمر خطير تتوقف عليه الحياة بكل تفاصيلها، فكان لا بد من اختبار، ومع أننا لا نعلم ماهية الأسئلة التي طرحها هشام، إلا أنه بكل تأكيد سأله بدايةً أسئلة على غرار ما سأل عبد الله، عن مقدار الزكاة وما إلى ذلك، ولكن هذا ليس بكاف حتماً، ومن المحتمل جداً أن الأسئلة امتد بها الوقت لتشمل مسائل فقهية ثم عقائدية، وقد أجاز الإمام لهشام هذا الحق، حتى لا يتصدى لهذا الأمر الجهلة والانتهازيين، وحتى تستمر التربية الفكرية لأصحابه وللأجيال اللاحقة، وحتى يومنا هذا وإلى نهاية البشرية، إذ نلاحظ أن معرفة الإمام ومن يأتي بعدهم منوطة بالمعرفة، وحلّ المعضلات التي تمرُّ بها البشرية، وهذا ما وعاه هشام بكل تأكيد عن الإمام الصادق أيضاً، بل يصل

^{١٠} - الصفار، بصائر الدرجات، ص ٢٨١.

^{١١} - سورة النساء ٨٣.

^{١٢} - الحلي، مختصر بصائر الدرجات، ص ١٠٣.

^{١٣} - الحلي، مختصر بصائر الدرجات، ص ١٠٣.

الأمر أن الإمام المهدي (عليه السلام) لا يُعرف إلا من خلال المعرفة، كما روى المفضل بن عمر، قال : سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول :

((لصاحب هذا الامر غيبتان : إحداهما يرجع منها إلى أهله والأخرى يقال : هلك، في أي واد سلك، قلت : كيف نصنع إذا كان كذلك؟، قال : إذا ادَّعَاها مُدَّعٍ فاسأَلوه عن أشياء يجيب فيها مثله)).^{١٤}

وهذا التوجيه ليس توصية عابرة وإنما قاعدة أولى وأساسية، كما أنها توضح أن معرفة الإمام ليس من خلال انتظار المعجزات، وهكذا كان الأمر في الأنبياء، إذ ليست المعجزة هي القاعدة، وربما كان لها دور في الأمم السالفة، عندما كانت موغلة بالجهل، أما في أزمان المعصومين وإلى آخر الزمان، فإن القاعدة هي المعرفة، فلو دار الأمر بين جاهل يأتي بأمر خارق للعادة وبين عالم يجيب عن حاجات البشرية ويضع حلولاً لمشاكلها فإن الخيار هو الثاني، من دون أدنى شك.

وهذا ما يعتبر مائزاً لأئمة أهل البيت عن غيرهم، وكذلك لعلماء الحق، إلى هذا اليوم، لكي لا يقفز الانتهازيون وأنصاف الجهلة إلى هذا المنصب الرباني، ولم تكن حادثة الأفضح هي الأولى والأخيرة، فكان ما كان من جعفر بن الإمام الهادي (عليه السلام)، الذي عُرف بالكذب، كما أن هناك المتوهمين الذين فهموا من الإمامة أنها منصب وراثي صرف، أو بالإمكان الوصول إليه بالثورة وحمل السلاح ضد السلطات الظالمة، وهؤلاء بالرغم من حسن نواياهم إلا أنهم تسببوا بإيجاد فرق جديدة انحرفت مع الوقت عن أئمة أهل البيت. ومن هؤلاء الزيدية، الذين لا يكون الشخص إماماً عندهم ما لم يخرج بالسيف.

السياسية : نشأت حركات سياسية في عصر الإمام الكاظم أو قبل ذلك بقليل، سواء في حياة أبيه كحركة أبناء الحسن، التي واكبها مع أبيه وبعين المراقب المسؤول سيتحمل نتائجها وتبعاتها لاحقاً، وستشهد حملة مسعورة من السلطات تقتل لمجرد الشبهة، بل لمجرد الإحساس بالارتياح من دون أي مؤشر، هذا الإحساس الذي أدّى إلى استكباب السلطة، فكانت تتسبب باندلاع ثورات وحركات لم تكن بالحسبان، كما في حركة شهيد فخ الحسين بن علي الخير^{١٥}، الذي كان صالحاً مسالماً ولكن الضغط الذي مارسه سلطة الهادي العباسي بعنجهيتها كان أكبر من أن يتحمّله، مع وجود حوافز سابقة، فهو ابن الأسرة الحسنية التي ارتكبت بحقها المنصور جدّ الهادي مجزرة لم تكن آثارها قد طمست بعد.

كان على الإمام الكاظم أن يستعد لمواجهة هاتين، الأولى مع الثائرين الذين لم يكونوا ليغفروا لمن يتخلف عن ثورتهم، والثانية مع السلطات لاحقاً، بعد فشل الثورة، ولعل ما هو أهم من ذلك حصانة أصحاب الإمام من الإنزلاق العاطفي مع مثل هذه الثورات، وهذه جدلية ليست بالهينة، فبالرغم من نزاهة وصدق الثائرين، إلا أن هذا لوحده لا يكفي لاقحام قواعد الإمام فيها، فأهداف الثورة وأسبابها لا شك في نبلها، إلا أن الإمام لا

^{١٤} — الكليني، الكافي، ج ١ ص ٣٤٠.

^{١٥} — هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ينظر للأهداف الآنية أو للمستقبل القريب، ولم يكن الإمام ليضحى بخلاصة أصحابه وأصحاب أبيه من أجل نتائج آنية، وفي جيلنا هذا بعد أكثر من ١٠٠٠ عام على تلك الأحداث نرى بوضوح الحكمة من سلوك الإمام، فلو اشترك الإمام وأصحابه في تلك الثورات ومضوا كشأن قادتها، لانقطع الجيل اللاحق عن السابق، ولم تكن مدرسة أهل البيت لتُحفظ من الانداس.

نجد أن الإمام الكاظم قد اتخذ خطوات جديدة استثنائية في تاريخ الأئمة السابقين، وهي إدخال عناصر مخصصة من أصحابه في السلطة حتى بلغوا مناصب عالية فيها، وكان ذلك أيام المنصور والمهدي والهادي والرشيد العباسيين، ومن أهمهم :

علي بن يقطين : وهو من أجلة أصحاب الإمام الكاظم ومن خواصه، وكان يعمل ضمن موظفي قصر هارون العباسي، ولم ينقطع عن الإمام الكاظم حتى توفي، وراسله بشكل مستمر، وحمل إليه الأموال، وقد وثقه وأثى عليه كل من كتب في رجال الحديث، كالمفيد والطوسي والنجاشي.

ولكنه كان يتخوف من الإستمرار في العمل مع السلطة فكتب إلى الإمام الكاظم يطلب إعفاه :

((من كتاب حقوق المؤمنين: لأبي علي بن طاهر قال : استأذن علي بن يقطين مولاي الكاظم (عليه السلام) في ترك عمل السلطان فلم يأذن له، وقال : لا تفعل فإن لنا بك أنساً، وإخوانك بك عزاءً، وعسى أن يجبر الله بك كسراً، ويكسر بك نائرة المخالفين عن أوليائه، يا علي، كفارة أعمالكم الإحسان إلى إخوانكم، اضمن لي واحدة وأضمن لك ثلاثاً، اضمن لي أن لا تلقى أحداً من أوليائنا إلا قضيت حاجته وأكرمته، وأضمن لك أن لا يظلك سقف سجن أبداً، ولا ينالك حدّ سيف أبداً، ولا يدخل الفقر بيتك أبداً، يا علي، من سرّ مؤمناً فبالله بدأ وبالنبي صلى الله عليه وآله ثنى وبنا ثلث)).^{١٦}

نلاحظ أن حدثاً الإمام لأصحابه للعمل في السلطة كان ضمن ضوابط، وفي نفس الوقت كان يعلم أن هؤلاء لن يسقطوا في ما يؤدي إلى تقوية ظلم السلطة، فكما نرى في توجيهات الإمام فإن العمل بحد ذاته مذموم ولكن كفارته قضاء حوائج الناس خاصة أتباع أهل البيت، وعندما ضمن الإمام إخلاص أصحابه رفض إعفاهم من العمل، وهنا يأتي الترتيب بين الأهم والمهم، أو بين السلبيات والإيجابيات، فعندما تكون الإيجابيات أعلى وأكثر (وهي قضاء حوائج المؤمنين)، أكثر من السلبيات (وهي هنا مجرد العمل مع السلطة وخدمتها في بعض الجوانب)، كان البقاء هو الأرجح، بل يراه الإمام من الواجبات لمثل علي بن يقطين. ولم تكن حالة علي بن يقطين هو الاستثناء الوحيد، فنرى عدداً آخر من أصحابه كانت لهم مهام جسيمة في سلطان بني العباس، ومنهم :

((الحسن بن راشد : مولى بني العباس : كوفي، وكان وزير المهدي، وموسى (الهادي)))).^{١٧}

((عبد الله بن سنان، وكان على خزائن المنصور والمهدي والهادي والرشيد العباسيين)).^{١٨}

^{١٦} - المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٨ ص ١٣٦.

^{١٧} - الخوئي، معجم رجال الحديث، ج ٥ ص ٣١٢.

((علي بن أبي نصر : كوفي : وكان وزير المهدي)).^{١٩}

((نوح بن درّاج، تولى قضاء الكوفة، وولى أيضا ببغداد قضاء الشرقية زمن هارون، توفي سنة ١٨٢)).^{٢٠}
((جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو من أصحاب الإمامين الصادق والكاظم، وكان قد وكله هارون العباسي بتربية ورعاية ولده الأمين، وتولى خراسان والحرس لهارون، وكانت خاتم الخلافة بيده، وكان ابنه العباس من أصحاب الإمام الرضا، وكان أيضا ضمن الموظفين الكبار في البلاط العباسي)).^{٢١}
ويوجد غير هؤلاء تركناهم خشية الإطالة، كما كان هناك آخرون ضمن مراكز حساسة في السلطة، في قيادة الجيش وغيرها، ولكن خفيت أخبارهم عنا حرصاً على حياتهم وإنجاز مهامهم التي وكلوا بها وهي حفظ حياة ومصالح المؤمنين من أتباع الإمام (عليه السلام).

كما أن الإمام منع بعض أصحابه من العمل مع السلطة إلا بشروط، كما في رواية الكليني، عن :
((زياد بن أبي سلمة، قال : دخلت على أبي الحسن موسى (عليه السلام)، فقال لي : يا زياد، إنك لتعمل عمل السلطان؟. قال : قلت : أجل. قال لي : ولم؟. قلت : أنا رجل لي مروءة وعلي عيال، وليس وراء ظهري شيء. فقال لي : يا زياد، لأن أسقط من حالق فأتقطع قطعة قطعة، أحب إلي من أن أتولى لأحد منهم عملاً، أو أطأ بساط رجل منهم، إلا لماذا؟. قلت : لا أدري، جعلت فداك. قال : إلا لتفريج كربة عن مؤمن أو فك أسره أو قضاء دينه. يا زياد، إن أهون ما يصنع الله بمن تولى لهم عملاً أن يضرب عليه سرادق من نار إلى أن يفرغ الله من حساب الخلائق. يا زياد، فإن وليت شيئاً من أعمالهم، فأحسن إلى إخوانك، فواحدة بواحدة، والله من وراء ذلك. يا زياد، أيما رجل منكم تولى لأحد منهم عملاً ثم ساوى بينكم وبينهم فقولوا له : أنت منتحل كذاب. يا زياد، إذا ذكرت مقدرتك على الناس، فاذكر مقدره الله عليك غداً، ونفاد ما أتيت إليهم عنهم، وبقاء ما أتيت إليهم عليك)).^{٢٢}

نجد الإمام هنا يميز بين صنفين من أصحابه، القادرين على تطبيق شروط العمل مع السلطة، وغير الواثقين من أنفسهم ومن أهداف عملهم، ففي الوقت الذي يشدد الإمام على علي بن يقطين لإبقائه في العمل، يرفض أو يحذر زياد بن أبي سلمة من العمل، وهذا لا بد ناتج من تشخيصه الدقيق لقدرات أصحابه وأهدافهم، ومن

^{١٨} - الخوئي، معجم رجال الحديث، ج ١١ ص ٢٢٧.

^{١٩} - الخوئي، معجم رجال الحديث، ج ١٢ ص ٢٦٧.

^{٢٠} - أنظر ترجمته في تاريخ بغداد، ج ١٣ ص ٣١٦. ومعجم رجال الحديث، ج ٢٠ ص ١٩٦. وذكر النجاشي في ترجمة ابنه أيوب : ((أيوب بن نوح بن دراج النخعي أبو الحسين كان وكيلاً لأبي الحسن وأبي محمد "عليهما السلام" (أي الإمامين العسكريين) عظيم المنزلة عندهما، مأموناً، وكان شديد الورع، كثير العبادة، ثقة في رواياته، وأبوه نوح بن دراج كان قاضياً بالكوفة، وكان صحيح الاعتقاد، وأخوه جميل بن دراج)). رجال النجاشي، ص ١٠٢.

^{٢١} - المفيد، الإرشاد، ج ٢ ص ٢٣٧. القتال النيسابوري، روضة الواعظين ص ٢١٨. والأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص ٣٣٣. وتاريخ يعقوبي، ج ٢ ص ٤٢٩. وتاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٨٢. وتاريخ الطبري، ج ٦ ص ٤٤٥.

^{٢٢} - الكافي، ج ٥ ص ١١٠.

الواضح أن أهداف زياد تختلف عن أهداف ابن يقطين، كما في النص حيث نرى أن زياد إنما يعمل لأغراض توفير المعيشة المترفة وليس لهدف خدمة أو إمامه وأخوانه.

فنلاحظ أن الإمام لم يكن منعه على نحو الاطلاق، لأنه كان يودُّ أن يعرف أهداف هذا الرجل من العمل، فقال له : ولم؟. ومن المؤكد أن الإمام كان يعلم دافعه للعمل، ولكنه أراد أن يؤدبه، فيتحول عمله من مجرد منافع خاصة إلى منافع عامة، فشرع (عليه السلام) بتوجيهه لشروط العمل ضمن السلطة.

ولهذا السبب رفض طلبات علي بن يقطين المتكررة باعتزال العمل :

((عن علي بن يقطين : أنه كتب إلى أبي الحسن موسى (عليه السلام) : إن قلبي يضيق مما أنا عليه من عمل السلطان، وكان وزيراً لهارون، فإن أذنت لي جعلني الله فداك هربتُ منه. فرجع الجواب : لا آذن لك بالخروج من عملهم، واتق الله، أو كما قال))^{٢٣}.

ونستطيع الاعتماد على هذه النتيجة لتأكيد أمر آخر : وهو أن هؤلاء وغيرهم وجدوا في هذه المناصب منذ عهد سبق عهد الإمام الكاظم (عليه السلام)، أي في عصر أبيه الصادق (عليه السلام)، وربما كان توليهم برغبة من الإمام ولكن بعد أن تمّ تمحيصهم من قبله حتى لا يقعوا في شرك السلطة ومغرياتها. وفي جهة أخرى نرى الإمام يرفض التبرع لإعانة السلطة من دون الأهداف المطلوبة، ومنها حادثة صفوان الجمال :

عن ((صفوان بن مهران الجمال، قال : دخلت على أبي الحسن الأول (عليه السلام) فقال لي : يا صفوان كل شئ منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً. قلت : جعلت فداك أي شيء؟. قال : إكراؤك جمالك من هذا الرجل، يعني هارون. قلت : والله ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا لصيد ولا للهو، ولكني أكريه لهذا الطريق، يعني طريق مكة، ولا أتولاه بنفسي ولكن أنصب غلmani. فقال لي : يا صفوان أيقع كراؤك عليهم؟. قلت : نعم جعلت فداك. قال : فقال لي : أتحب بقائهم حتى يخرج كراؤك؟. قلت : نعم. قال : فمن أحب بقائهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النار. قال صفوان : فذهبت وبعثت جمالي عن آخرها، فبلغ ذلك إلى هارون، فدعاني فقال لي : يا صفوان بلغني أنك بعت جمالك؟. قلت : نعم. فقال : لم؟. قلت : أنا شيخ كبير وأن الغلمان لا يفون بالأعمال. فقال : هيهات هيهات، أني لأعلم من أشار عليك بهذا موسى بن جعفر. قلت : مالي ولموسى بن جعفر. فقال : دع هذا عنك، فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك))^{٢٤}.

فما هو الفرق بين عمل علي بن يقطين وأمثاله وعمل صفوان الجمال؟ :

أن أهم الفروق بين العاملين أن عمل ابن يقطين ضمن السلطة التي لا بد من وجود من يشغلها، ومن المحتمل جداً أن يكون فيه بعض الانتهازيين الذين لن يتورعوا عن ظلم الناس في سبيل إرضاء السلطان، أو

^{٢٣} — الحميري القمي، قرب الإسناد، ص ٣٠٥.

^{٢٤} — الطوسي، اختيار معرفة الرجال، ج ٢ ص ٧٤٠.

يمكن أن يكون في هذا المنصب من هو معاد للإمام وأتباعه كما في أبناء برمك الذين تسببوا بقتل الإمام وعاثوا فساداً ونهباً في مقدرات و ثروات وكرامة المجتمع الإسلامي.

أما مهنة صفوان الجمال فليس في تركها أي أثر انتكاسي يرتد على المجتمع المسلم، ولربما كان فهم صفوان أن عمله هذا إذا لم يقم به هو فسيقوم به غيره، كما أن إكرائه الجمال لغاية عبادية وهذا ليس فيه إعانة على إثم حسب فهمه.

لكن الإمام يعطي صفوان الجمال وغيره درساً في فهم حقيقة الأمر، فإن مثل هذه العبادات (الحج) لا قيمة لها إذا صدرت من ظالم بحق المجتمع، لأن أصل عبادة هؤلاء إنما تأتي لغرض دعائي كما نلاحظه في كل وقت. فتواجد الخليفة ضمن تجمع مهم كالحج يوفر لهم إعلماً ضرورياً لترسيخ سلطته وجذب عامة الناس إليه، وحسب تعاليم الأئمة فإن هذا إضلال للمجتمع وتغريب بهم، فمن الواجب عدم المشاركة في هذا العمل.

ويدل على أن الحج كان لأغراض دعائية ما رواه الخطيب البغدادي :

((حج هارون الرشيد، فأتى قبر النبي (صلى الله عليه وسلم) زائراً له وحوله قريش وأفياء القبائل، ومعه موسى بن جعفر فلما انتهى إلى القبر قال : السلام عليك يا رسول الله، يا ابن عمي. افتخاراً على من حوله، فدنا موسى بن جعفر فقال : السلام عليك يا أبة. فتغير وجه هارون، وقال : هذا الفخر يا أبا الحسن حقاً)).^{٢٥}

ومن المؤكد أن هارون عند دخوله إلى الروضة النبوية لم يتكلم بصوت خافت، وإنما كان يبتغي أن يضيفي على نفسه أثراً محترماً عند العامة الذين تحلقوا حوله دون شك، فهو ليس صاحب السلطة الزمنية مصادفة، وإنما هو امتداد لصاحب القبر (صلى الله عليه وآله)، ولكن هدفه أجهض مباشرة من قبل الإمام الذي عارض انتساب هارون البعيد بانتسابه القريب.

وعلى نفس الوتيرة استغل هارون الحج والضريح النبوي لدعايته وأغراضه في مناسبة أخرى، عندما أراد اعتقال الإمام وتصفيته فقال بصوت مسموع كالمخاطب للنبي (صلى الله عليه وآله):

((بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني أعتذر إليك من أمر قد عزمت عليه فإني أريد أن آخذ موسى بن جعفر فأحبسه، لأنني قد خشيت أن يلقي بين أمتك حرباً تسفك فيها دماؤهم)).^{٢٦}

وفي رواية الشيخ المفيد :

((يا رسول الله، إني أعتذر إليك من شيء أريد أن أفعله، أريد أن أحبس موسى بن جعفر، فإنه يريد التشتيت بين أمتك، وسفك دماؤها)).^{٢٧}

^{٢٥} — تاريخ بغداد، ج ١٣ ص ٣٢.

^{٢٦} — الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج ٢ ص ٧٣.

^{٢٧} — المفيد، الارشاد، ج ٢ ص ٢٣٩.

فهارون لم يكن يعنيه أن يعتذر من النبي أو لم يكن يوجه كلامه إليه على الإطلاق، وإنما أراد أن يسمع الناس الذين سيتناقلون الخبر، فيرى ردة أفعالهم ويقرر على أثرها الخطوة اللاحقة، وبالفعل بقي الإمام في السجن مدة من الزمن قبل اغتياله بالسم.

النتيجة أن الحج هو حركة إعلامية لا أكثر، وهذا ما أراد الإمام أن يعيه صفوان وغيره ممن يتأثرون بالإعلام السلطوي.

كما أن الإمام ألفت نظر صفوان إلى ناحية نفسية غاية في الأهمية، وهي أن صفوان سيتمنى عودة هارون سالمًا لكي يستوفي أجره جماله، وهذا التمني بحد ذاته ميل قلبي بأي مستوى كان، بالتالي حصل تراجع وتناقض ذاتي، باعتبار أن المؤمنين يدعون ويتمنون زوال الظلمة في كل ساعة، وتمني صفوان خلاف هذا الإرتكاز، ومن المؤكد أن هارون في رحلة الحج هذه يبقى لشهر أو شهرين، ولا شك أنه خلالها سيقوم بظلم معين، أو هدر للمال العام، وغير ذلك. ولم يكن الإمام يحب أن يكون صفوان بهذا المستوى المتسافل، وبكل تأكيد فإن صفوان لم يكن ملتفتاً إلى هذه المسألة الدقيقة، فلما نبّهه الإمام استجاب فوراً، مع أنه عرض نفسه لاحتمال سخط هارون الذي كان يعرف ميول صفوان العقائدية.

ومن حسن توفيق صفوان أن الإمام نهاه عن عمله هذا لأن هارون إنما أقدم على اعتقال الإمام حينما قدم مكة المشرفة لغرض العمرة، كما روى الخطيب البغدادي :

((قدم هارون منصرفاً من عمرة شهر رمضان سنة تسع وسبعين، فحمل موسى معه إلى بغداد وحبسه بها إلى أن توفي في محبسه)).^{٢٨}

وفي رواية الكليني :

((وكان هارون حمله من المدينة لعشر ليال بقين من شوال سنة تسع وسبعين ومائة وقد قدم هارون المدينة منصرفه من عمرة شهر رمضان، ثم شخص هارون إلى الحج وحمله معه، ثم انصرف على طريق البصرة فحبسه عند عيسى بن جعفر، ثم أشخصه إلى بغداد، فحبسه عند السندي بن شاهك فتوفي (عليه السلام) في حبسه ودفن ببغداد في مقبرة قريش)).^{٢٩}

ولو افترضنا أن جمال صفوان هي التي حملت هارون في رحلته المشؤومة هذه، فهل كان صفوان ليغفر لنفسه، وهل كان أخوانه من أتباع الإمام ليسامحوه؟.

حماية الإمام لأصحابه :

^{٢٨} — تاريخ بغداد، ج ١٣ ص ٢٩.

^{٢٩} — الكافي، ج ١ ص ٤٧٦.

بعد أن فهمنا أن الإمام كان يلزم بعض أصحابه بالبقاء ضمن موظفي السلطة، فكيف كان ينظر إليهم أصحاب الإمام الآخرون ممن لا يعلمون تفاصيل عملهم واتفقهم مع الإمام؟.

كما هو الطبيعي فإن أصحابه ينقسمون إلى قسمين رئيسيين : الخواص وعامة الأصحاب، أما الخواص فكانوا يعرفون إجمالاً وربما بعض التفاصيل، وهؤلاء كانوا قريبين من الإمام يتواصلون معه وفيما بينهم، وهم أهل دين ووثاقة ليسوا من الثرثارين، والقسم الآخر فهم ليس من الضروري أن يعرفوا كل التفاصيل، وإنما بعض الكلمات العابرة، لذلك كانت تصل إلى جواسيس السلطة بعض الهمسات التي على أساسها تعرض علي بن يقطين إلى استجابات ومراقبة ومكائد، ولكن الله أنجاه منها، لأنه كان يتبع التعاليم والإجراءات الأمنية التي كان الإمام يوصيه بها، ومنها :

((أن هارون أهدى لعلي بن يقطين ثياباً ومن ضمنها (ثوب) دراعة خز سوداء مثقلة بالذهب من لباس الملوك، فأرسلها علي مع بعض الأموال إلى الإمام، فقبل الإمام الأموال وأعاد الدراعة، وبعد مدة تغير عليه بعض غلمانه، لسبب ما، فبلغ أزالام هارون أن ابن يقطين يبعث أموالاً إلى الإمام ومنها هذه الدراعة، فاستجوب علي بن يقطين وفتشوا داره ووجدوها، فعوقب الغلام وحسن حاله عند هارون)).^{٣٠}

أن إجراء الإمام الذي وقى ابن يقطين سوء العواقب كانت له أسبابه الموضوعية، فنقل الأموال (النقد) بسرية ليس بتلك المشكلة الكبيرة، إذ يمكن لعلي أن يقول أنه أنفقها هنا وهناك، أما أمثال هذه الهدايا النفيسة لا يتيسر العثور عليها بسهولة في حال المسائلة المباغثة، وهو أمر متوقع في كل لحظة، ولم يكن ابن يقطين ملتفتاً إلى هذا المغزى بالرغم من أخذه كل الاحتياطات اللازمة، فاتخذ الإمام هذا الإجراء مع توضيح مشرف كالمعتاد، فهو لم يذكر له سبب إرجاع الثوب وربما وقع الكتاب بيد السلطات، وإنما اكتفى بعبارته تلك معتمداً على تسليم ابن يقطين وإيمانه.

نعرف من خلال الإطلاع على تاريخ الأئمة أن أصحابهم كانت لهم مهام في متنوعة، ومن أهمها علم الكلام، في العقائد، وكان منهم مبرزين ومتضلعين في هذا العلم، إذ كان يعتبر في ذلك الوقت بمثابة الحداثة هذا اليوم، وهذا ما يفرق مذهبهم (عليهم السلام) عن غيرهم، إذ نجد أن باقي الاتجاهات كانت تهتم بعلم دون آخر، خاصة علم الحديث أو الفقه، ولم يكن بينهم من يمتلك بين أصحابه مدارس متكاملة لكل ما يحتاجه المجتمع الإسلامي، ومن المؤكد أن الأصحاب إنما استقوا علومهم المتنوعة من الأئمة، وهذا يؤكد ان أئمتنا كانت لهم الكلمة العليا في هذه العلوم. ولا يستطيع أحد أن يدعي لغيرهم إحاطته الكاملة بكل تلك العلوم، كما لا يوجد أي واحد من زعماء المذاهب الإسلامية آنذاك له هذه المنظومة المتكاملة من العناصر العالمية والعامة في شتى المجالات التي تخص المجتمع الإسلامي.

وكما لاحظنا يوجد العاملون في الوسط الحكومي وعلى مستويات عالية مؤثرة كعلي بن يقطين والحسن بن راشد، ويوجد المختصون بالعلوم الإسلامية أو العلوم التي كانت تجتاح المجتمع الإسلامي كعلم الكلام

^{٣٠} - المفيد، الإرشاد، ج ٢ ص ٢٢٥. والنيسابوري، روضة الواعظين، ص ٢١٣.

المتفرع عن الفلسفة كهشام بن الحكم وهشام بن سالم، لكي يدفعوا المفاصد التي تطرأ من قبل أصحاب الشبهات، ويوجد القضاة كنوح بن دراج، والفقهاء كزرارة بن أعين ويونس بن عبد الرحمن، ويوجد المحدثين وهم هؤلاء والمئات غيرهم، وهم ممن يُشهد لهم بطول باعهم بين أقرانهم على أقل التقادير، ولم يستطع أحد المناوئين أن يحط من قدر أحد الأصحاب مهما بعدت الشقة، نعم غاية ما تمتد إليه أعناق غير المنصفين وصف هؤلاء العظماء بالرفض أو الغلو، وهذا كما ترى جهد العاجز.

إن منهج الأئمة خاصة في عصر الإمام الصادق والكاظم (عليهما السلام)، تميز بهذه الشمولية بكل وضوح، واستمر الأمر على هذا المنوال واتسع في عصور الأئمة بعدهما.

وقد اعتبر عصر الإمام الصادق العصر الذهبي في تاريخ الأئمة، وقد ورث الإمام الكاظم نتائج ذلك العصر وانتقل به إلى مرحلة جديدة، مع أنها كانت مريرة أكثر من عصر أبيه إلا أنه استطاع أن يتجاوز الأزمة وينجي أصحابه من مخاطرها، لأنهم كانوا لسانه الناطق الذي يصل إلى باقي أفراد المجتمع، لأن الرقابة كانت تشدد عليه بين الحين والآخر، أما أصحابه فكانوا أكثر حرية في الحركة بلا شك، ولكن تمر أيام قد لا يلاحظها أصحابه، مع أنها أيام حالكة فيبادر إلى توجيه أصحابه بالسكون أو الغياب عن الأعين.

وكانت رسائله فورية عند أية تطورات في الوضع السياسي أو الأمني، فما أن يلاحظ الإمام أن السلطة تواجه أزمة سياسية فإنه يوصي أصحابه بالابتعاد عن الأضواء، حتى من كان منهم لا يعنى بالسياسة مباشرة، كما جاء عن هشام بن الحكم :

((أنه لما كان أيام المهدي شدد على أصحاب الأهواء، وكتب له ابن المفضل صنوف الفرق صنفاً صنفاً، ثم قرأ الكتاب على الناس، فقال يونس : قد سمعت هذا الكتاب يقرأ على الناس على باب الذهب بالمدينة، ومرة أخرى بمدينة الواح. فقال إن ابن المفضل (ابن المقعد) صنف لهم صنوف الفرق فرقة فرقة، حتى قال في كتابه : وفرقة منهم يقال لهم الزرارية، وفرقة منهم يقال لهم العمارية أصحاب عمار الساباطي، وفرقة يقال لها اليعفورية، ومنهم فرقة أصحاب سليمان الأقطع، وفرقة يقال لها الجواليقية. قال يونس : ولم يذكر يوماً هشام بن الحكم ولا أصحابه، فزعم هشام ليونس أن أبا الحسن (عليه السلام) بعث إليه فقال له : كُفَّ هذه الأيام عن الكلام فان الأمر شديد، قال هشام : فكففت عن الكلام حتى مات المهدي وسكن الأمر، فهذا الذي كان من أمره وانتهائي إلى قوله. أن أبا الحسن (عليه السلام) بعث إليه فقال له : كُفَّ هذه الأيام عن الكلام فإن الأمر شديد. قال هشام : فكففت عن الكلام حتى مات المهدي وسكن الأمر)).^{٣١}

وفي رواية أخرى أن الأمر خرج إليه وإلى هشام بن سالم الجواليقي بالكف عن الكلام.^{٣٢}

نلاحظ أن هذه الفرق المذكورة في النص تنتسب إلى كل من :

^{٣١} - الطوسي، اختيار معرفة الرجال، ج ٢ ص ٥٤٢.

^{٣٢} - الطوسي، اختيار معرفة الرجال، ج ٢ ص ٥٤٧.

الزرارية : نسبة إلى زرارة بن أعين من أجلاء أصحاب الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) توفي بعد وفاة الإمام الصادق وقبل أن يصل إليهم خبر إمامة الكاظم (عليه السلام) بأيام.
العمارية : من أصحاب عمار الساباطي، كما هو مذكور، وهو من أصحاب الإمامين الصادق والكاظم (عليهما السلام).

اليعفرورية : نسبة إلى عبد الله بن أبي يعفور من أجلاء أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) وتوفي في زمنه.

أصحاب سليمان بن خالد الأقطع : سليمان بن خالد بن دهقان بن نافلة، مولى عفيف، أبو الربيع الأقطع، خرج مع زيد فقطعت إصبغه، لم يخرج من أصحاب أبي جعفر (عليه السلام) غيره، ثقة، صاحب قرآن. وقال البرقي : سليمان بن خالد البجلي الأقطع، كوفي، خرج مع زيد بن علي فأفلت. وفي كتاب سعد : أنه خرج مع زيد فأفلت، فمنَّ الله عليه وتاب ورجع بعد ذلك. وكان فقيهاً وجهاً، روى عن الصادق والباقر (عليهما السلام)، وكان الذي قطع يده يوسف بن عمر بنفسه، مات في حياة أبي عبد الله (عليه السلام).^{٣٣}
الجواليقية : نسبة إلى هشام بن سالم الجواليقي، وقد عرفنا حاله وصحبته للإمامين الصادق والكاظم (عليهما السلام).

نلاحظ أن هذه الفرق المدعاة كلها تنتسب إلى أصحاب الأئمة (الباقر والصادق والكاظم "عليهم السلام") وهذا يعني أن المستهدف هو أصحاب الأئمة ومنهم من كان متوفى ذلك الوقت، إلا هشام بن سالم وهشام بن الحكم، لهذا السبب كان التوجيه لهما خاصة.

فيكون الغرض الرئيسي من هذه الحملة سياسي بحت، وليس للأمر علاقة بأهواء أو بدع، كما أراد أن يمرر المهدي العباسي لعامة الناس، لكي يتناول الإمام الكاظم ويجد الذريعة لاعتقاله، وبالفعل اعتقل الإمام في زمن المهدي قبل أو بعد هذه الحملة، والأرجح أنه اعتقل بعدها.

((أما المهدي هذا فقد اتخذ الزندقة ذريعة للقضاء على كل مناوئيه، وخصوصاً العلويين، والمتشيعين لهم :

وقال الدكتور أحمد شلبي : "إن الرمي بالزندقة اتخذ وسيلة للإيقاع بالأبرياء في كثير من الأحيان".

وقال الدكتور أحمد أمين المصري : "الحق أن بعض الناس اتخذوا الزندقة ذريعة للانتقام من خصومهم، سواء في ذلك : الشعراء، والعلماء، والأمراء، والخلفاء". وقال عبد الرحمن بدوي : إن الاتهام بالزندقة في ذلك العصر، كان يسير جنباً إلى جنب مع الانتساب إلى مذهب الرفض، كما لاحظ ذلك الأستاذ "فيدا")).^{٣٤}

فهو (عليه السلام) ينظر إلى السياسة بمنظار واقعي، فالحكومات البرغماتية (وهي السائدة عبر التاريخ) إذا مرت بها أزمة تلجأ إلى حلها عن طريق أزمة أخرى، أو دعاية أخرى تجد لها صدى عند الناس عادة،

^{٣٣} — العلامة الحلي، خلاصة الأقوال، ص ١٥٣ — ١٥٤.

^{٣٤} — الحسيني، جعفر مرتضى، حياة الإمام الرضا، ص ٩٠ — ٩١.

فليس قليل أولئك الذين تمّت تصفيتهم لأسباب سياسية، بينما يعلن عن أسباب أخرى كالتجسس أو الطائفية وما إلى ذلك.

المنهج التربوي العام :

كما هو شأن آباءه تعرض الإمام الكاظم (عليه السلام) لمضايقات كثيرة من قبل السلطات الجائرة، ومن مناوئيه، ونرى أنه (عليه السلام) كان يتعامل مع كل موقف بما يناسبه، فهو عندما يتعامل مع البسطاء من الناس الذين انجرفوا مع إعلام السلطة، أو كانوا يعادونه لأغراض مذهبية أو عصبية، تراه يلفظ لهم القول ليضعهم أمام ما غاب عنهم من خلقهم وعلمهم وأبويتهم للمجتمع، كما في حادثة العمري :

((أن رجلاً من ولد عمر بن الخطاب كان بالمدينة يؤذي أبا الحسن موسى (عليه السلام) ويسبه إذا رآه، ويشتم علياً، فقال له بعض حاشيته يوماً : دعنا نقتل هذا الفاجر. فنهاهم عن ذلك أشد النهي، وزجرهم، وسأل عن العمري فنذكر أنه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب إليه، فوجده في مزرعة له، فدخل المزرعة بحماره فصاح به العمري : لا توطئ زرعا. فتوطأه عليه السلام بالحمار، حتى وصل إليه، ونزل وجلس عنده، وبأسطه وضاحكه، وقال له : كم غرمت على زرعك هذا؟. قال : مائة دينار. قال : فكم ترجو أن تصيب؟. قال : لست أعلم الغيب. قال له : إنما قلت كم ترجو أن يجيئك فيه؟. قال : أرجو أن يجيئ مائتا دينار. قال : فأخرج له أبو الحسن (عليه السلام) صرة فيها ثلاثمائة دينار، وقال : هذا زرعك على حاله، والله يرزقك فيه ما ترجو. قال : فقام العمري فقَبَّلَ رأسه وسأله أن يصفح عن فارطه، فتبسم إليه أبو الحسن وانصرف، قال : وراح إلى المسجد فوجد العمري جالساً فلما نظر إليه قال : الله أعلم حيث يجعل رسالاته. قال : فوثب أصحابه إليه فقالوا له : ما قضيتك؟، قد كنت تقول غير هذا. قال : فقال لهم : قد سمعتم ما قلت الآن. وجعل يدعو لأبي الحسن (عليه السلام) فخاصموه وخاصمهم، فلما رجع أبو الحسن إلى داره قال لجلسائه الذين سألوه في قتل العمري : أيما كان خيراً ما أردتم؟، أم ما أردت؟، إنني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم، وكُفيت به شره)).^{٣٥}

إن النظرة العامة إلى الأئمة على أنهم مظلومون ركزت على جهة واحدة وهي الاستضعاف والمسكنة، وأنهم قُتلوا من غير ذنب، بالتالي تُطرح قضيتهم على الدوام وفق أسلوب التباكي، مما أدَّى إلى تعميم هذه الرؤية وجعلها شعاراً ينطلق من على المنبر حتى أصبح ثقافة أصيلة، وتمَّ إغفال أنهم (عليهم السلام) كانوا يعلمون نتائج أعمالهم وأدوارهم، كما هو شأن معظم أصحاب الأهداف النبيلة.

حادثة العمري وغيرها حدثت باستمرار مع كافة الأئمة ولا نعدم شواهد كثيرة عليها، تؤكد أنهم ما كانوا ليسكنوا بشكل مطلق أمام الزحف المتواصل من قبل السلطة ووعاظها من ناحية، والصمت والسلبية

^{٣٥} - تاريخ بغداد، ج ١٣ ص ٣٠. والمفيد، الإرشاد، ج ٢ ص ٢٣٣. والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦ ص ٢٧١. والمجلسي، البحار ج ٤٨ ص ١٠٣.

اللامبالية من قبل أصحابهم، لأن الإمام يشعر بالمسئولية تجاه العمري ومن هو على شاكلته، فالعمري ليس كهارون أو يحيى البرمكي أو السندي بن شاهك، فهؤلاء الأقلية الوضيعة الإنتهازية باقون في مركزهم على مرّ التاريخ ما دام العمري وأضرابه لا يجدون من يعرفهم بطريق الحق، وبلا شك فإن كل ظلمة التاريخ يستمدون ديمومة سلطانهم من جهل المجتمع وتجهيله، وما كان هؤلاء ليصلوا إلى ما وصلوا إليه لولا شردمة ممن كرّسوا الدين لخدمة مصالحهم المتبادلة.

نعم إن الفقه والعلوم الأخرى لها دور مهم في إصلاح المجتمع عندما يكون القيم عليها وموجهها كالإمام الكاظم، ونفس هذه العلوم يكون لها الدور التخريبي الإضلاحي عند تأويلها وإخضاعها وليّ عنقها لخدمة المصلحة الذاتية الدنيوية.

ولكن الدور الأهم بالنسبة لعامة المجتمعات هو السلوك العملي، فمن الواضح أن أهل الحق منعوا – عبر التاريخ – من إيصال كلامهم إلى مسامع الناس، وحتى لو سنحت لهم الفرصة فهنا يأتي دور الضجيج الإعلامي للجهات المصلحية، فلا بد من دور عملي مباشر يعرف الآخر بهوية الحق، فلو افترضنا أن الإمام التقى بهذا الرجل العمري في المسجد وهو يواجهه بسبّه وسبّ علي أمير المؤمنين (عليه السلام)، وألقى الإمام موعظة من مواعظه، أو دخل معه في سجال فكري حول مكانة الأئمة وتاريخهم، وسوق الأدلة على أهم الحق وغيرهم الباطل، فمن المؤكد – كما الحال في كل وقت – أن هذا العمري لن تكون أذنه واعية أو صاغية لما سيتلوه الإمام لأحد سببين، فالمتلقي إما أن يكون ذو خلفية ثقافية معتد بها، ولكنه في نفس الوقت معتد بانتمائه متعصب له، ويدخل السجال في دوامة (إن قلت قلت)، كما هو شأن الغالبية العظمى من النقاشات قديماً وحديثاً، ولن تكون هناك نتيجة تذكر سوى إذكاء الخلاف والابتعاد عن الهدف منه.

وأما أن يكون هذا العمري ضحل المستوى، كما هو متوقع، وكما هو النسبة العظمى من البشرية، عندها سيكون الحوار عقيماً، وسيزيد من تعنته وابتعاده، ولكن الإمام قام بخطوات عملية تتناسب مع عامة الناس، وهي الأساليب العملية التي تكون أقرب إلى الناس من كل ما يتلى في صحف الفكر.

إن ما قام به الإمام نموذج للاقتداء به من قبل أصحابه وأتباعه من بعده، وليس أنه عمل الإمام الوحيد، فلو أراد الإمام أن يقوم به مع كل من خالفه وخالف آباءه لما كفت أعمارهم مجتمعة لتحقيق النتيجة، فكيف بعمر إنسان واحد لم يتجاوز عقده السادس.

وهنا لا بد من الالتفات إلى مسألة هامة في هذه الحركة التي يراد منها أن تكون مؤسسة لمنهج تربوي، أن نعرف العامل المؤثر في التغيير، فهذا العمري رجل جاهل ولكنه في نفس الوقت يمتلك طيبة لاحظها الإمام بشكل وآخر، وهذه الصفة سائدة لكل البشرية إلا أن تخرج منها لعناصر خارجية تربوية، سواء إرثية أسرية، أو إعلام عام (حشر مع الناس عيد)، فكان الأصل وجودها مهما أخفيت تحت كتمان التربية المنحرفة، وهنا يأتي التشخيص الصحيح من المربي، الذي يقوم بتحفيز الفطرة وتحريكها، ولكن تحريكها يتطلب نسبة من التجاوب كبدائية مهما كانت طفيفة، وهنا نلاحظ حركة مهمة عابرة في الرواية قام بها الإمام لتحريك فطرة هذا الرجل، وهي أنه (ضاحكاً) كما في النص، أي لاطفه بأمر بعيد عن أساس المشكلة

الأصلية (وهي هنا بغير علي بن أبي طالب)، ومن المؤكد أن الإمام في جلسته القصيرة مع هذا الرجل لم يذكر شيئاً عن الخلاف أو تجاوزاته عليه، كأن أمراً لم يكن، وهذا أيضاً أسلوب آخر، فعندما يكون الآخر مخطئاً ولكن بحسن نية، من المهم عدم تذكره بأخطائه، ما دام الهدف هو الإصلاح، فإن غاية ما يبغيه المصلح هو الإصلاح، وليس التلذذ بسماع الاعتذار وإذلال الآخر.

ولكن ليس هذا الأسلوب هو القاعدة، وإنما يتناسب مع حالة العمري، والسبب أنه من ناحية عمري، أي مخالف حسب المعتاد، ومن ناحية بساطته، وهذان أمران لا بد من ملاحظتهما، قبل أن يحاول المصلح أن يجرب خطة الإمام في الإصلاح لمثل هذا النموذج.

فهناك أسلوب آخر مع نموذج آخر، كما في القصة المعروفة لبشر بن الحارث المروزي المعروف ببشر الحافي :

((اجتاز مولانا الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) على داره ببغداد فسمع الملاهي وأصوات الغناء والقصب تخرج من تلك الدار، فخرجت جارية وببدها قمامة، فرمت بها في الدرب، فقال (عليه السلام) لها : يا جارية، صاحب هذه الدار حر أم عبد؟ فقالت : بل حر. فقال : صدقت لو كان عبداً خاف من مولاه. فلما دخلت قال مولاه وهو على مائدة السكر : ما أبطأك؟ فقالت : حدثني رجل بكذا وكذا. فخرج حافياً حتى لقي مولانا الكاظم (عليه السلام)، فتاب على يده، واعتذر وبكى لديه استحياء من عمله)).^{٣٦}

بشر الحافي الذي أصبح بعد ذلك من المحدثين وكبار الزهاد، انتقل من حال إلى حال بسبب كلمة، فما هو الفارق بين بشر الحافي وبين العمري أنف الذكر؟. ولماذا كانت رسالة الإمام شديدة لبشر ولم تكن رقيقة ملاطفة كما في حالة العمري؟.

أن أهم فرق بين الأمرين هو معرفة الإمام، فمن الواضح أن حال العمري الظاهرية أفضل من حال الحافي، بالتالي من المتوقع أن تكون رسالة الإمام أخف وطأة مما هي عليه عند العمري، وهذا ليس بصحيح، فإن بشر الحافي الذي كان يعرف أمر الأئمة^{٣٧} ولو على نحو الإجمال كان بحاجة إلى صدمة، بخلاف العمري الجاهل، فمشكلة العقيدة أشد حساسية من مشكلة المعصية، وتشديد الأئمة على أتباعهم أكثر من تشديدهم على مناوئهم، وهذا منهج عقلائي متعارف، إذ لا بد من البداية أن تكون بالتعريف والتعارف وكسب ثقة أو مودة الآخر، ومن ثمّ التعريف بالفكرة إجمالاً وعدم التعمق، وهكذا إلى يتم أن الوصول إلى المستوى الذي يستحقه المتلقي حسب مداركه.

وهناك صنف آخر ليس متعصباً في عقيدته، وربما ليس له توجه محدد، إضافة إلى طبيته وتورعه بالمفهوم المتعارف، وهذا أيضاً يعامله الإمام بأسلوب خاص كما في الرواية :

^{٣٦} - العاملي، أعيان الشيعة، ج ٣ ص ٥٧٩. وعباس القمي، الكنى والألقاب، ج ٢ ص ١٦٨.

^{٣٧} - ((إن بشراً ظاهراً الانتساب إلى أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كان متهماً بالرفض عند صاحب النفحات، ولم يزد في أخباره على أربعة أسطر تعصباً منه)). العاملي، أعيان الشيعة، ج ٣ ص ٥٧٩.

((علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن محمد، عن محمد بن فلان الواقفي قال : كان لي ابن عم يقال له (الحسن بن عبد الله) كان زاهداً وكان من أعبد أهل زمانه، وكان يثق به السلطان لجدّه في الدين واجتهاده، وربما استقبل السلطان بكلام صعب يعظه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وكان السلطان يحتمله لصلاحه، ولم تزل هذه حالته حتى كان يوم من الأيام إذ دخل عليه أبو الحسن موسى (عليه السلام) وهو في المسجد فرآه فأوماً إليه فأتاه، فقال له : يا أبا علي، ما أحب إلي ما أنت فيه وأسرني، إلا أنه ليست لك معرفة، فاطلب المعرفة. قال : جعلت فداك، وما المعرفة؟ قال : اذهب فتنقه واطلب الحديث. قال : عن من؟ قال : عن فقهاء أهل المدينة، ثم عرض علي الحديث. قال : فذهب فكتب ثم جاءه فقرأه عليه فأسقطه كله، ثم قال له : اذهب فاعرف المعرفة. وكان الرجل معنياً بدينه فلم يزل يترصد أبا الحسن (عليه السلام) حتى خرج إلى ضيعة له، فلقاه في الطريق فقال له : جعلت فداك إني أحتج عليك بين يدي الله فدني على المعرفة. قال : فأخبره بأمر المؤمنين (عليه السلام) وما كان بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأخبره بأمر الرجلين فقبل منه، ثم قال له : فمن كان بعد أمير المؤمنين (عليه السلام)؟ قال : الحسن (عليه السلام) ثم الحسين (عليه السلام). حتى انتهى إلى نفسه ثم سكت، قال : فقال له : جعلت فداك، فمن هو اليوم؟ قال : إن أخبرتك تقبل؟ قال : بلى، جعلت فداك؟ قال : أنا هو. قال : فشيء أستدل به))^{٣٨} ثم أثبت له الإمام ذلك فاعتقد به.

نلاحظ اختلاف أسلوب الإمام هنا مع الحاليتين الأوليتين، فحالة الرجل هنا تقع وسطاً بين العمري وبين الحافي، ومن الواضح أن حالة الحافي هي أخف وطأة وأقل مؤونة من الآخرين، فالحافي يعتقد ولكنه كان عاصياً فكان يحتاج إلى تذكير وزجر من قبل الإمام الذي يعتقد به، والعمري كان مناوئاً ولكنه ملتزم بالدين الظاهر وهذا واضح من النص فإنه كان يلتقي الإمام في المسجد مما يعني التزامه بالظاهر، والحسن بن عبد الله الزاهد كان ملتزماً محباً للإمام محترماً له من دون معرفة أوسع من ذلك.

فطلب منه الإمام أن يتفقه، وهذه أول خطوة، وهي طبعاً أول خطوة بعد أن تحصل حسن الظاهر الذي لا بد منه. ولم يطلب منه الإمام أن يتفقه على يديه هو أو على يد أحد أصحابه ومريديه، وإنما دفعه ليتفقه على يد فقهاء المدينة تحديداً، لأنهم كانوا على خلاف منهج الإمام، وهذا مهم جداً، لتحسين هذا الرجل الذي عرف الإمام متطلباته، والأهم عرف أنه غير متعنت سيمسك بما سيمسك من علماء المدينة، ولا بد من الإشارة أن معنى التفقه ليس بخصوص الأحكام الشرعية فحسب، لأن هذا الاصطلاح (الفقه، والتفقه) متأخر عن عصر النص، وإنما في ذلك العصر يعني طلب العلوم الدينية من الفقه والتفسير والعقائد والتاريخ النبوي وما إلى ذلك، وهذا حتماً تطلب مدة معتد بها وليس بين ليلة وضحاها، وكثرة التردد على مجالس العلماء المختلفين غاية مهمة، لمعرفة الاختلافات والنقاشات.

^{٣٨} - الكليني، الكافي، ج ١ ص ٣٥٣.

وبعد أن تحصّل له مقدار معتد به أسقطه الإمام، أي ناقشه ودحضه، كلاً أو جزءاً، تصحيحاً أو إقراراً، فأصبح العابد أمام فراغ فكري قد يسبب في الحالة الاعتيادية ردةً بمستوى ما، وهذا وارد ومنطقي في حال حصول الشبهة وعدم وجود البديل أو صموده أمام نفس مستوى الدحض، فقد تبين له أن عامة ما يذهب إليه فقهاء المدينة باطل، فاستوضح من الإمام، فبيّن له أمرهم وأثبت له إمامته (عليه السلام).
وهنا حالة أخرى متميزة عن الحالتين السابقتين، وكان علاجها مختلفاً تماماً عن أختيها، والمغزى هنا هو التشخيص أيضاً.

ومن المؤكد أن أخطر ما يواجه المصلحين أو الساعين للإصلاح هو السبل التي ينبغي اتباعها في هذا الطريق، وقدماً كنا نسمع من اساتذتنا في النجف الأشرف أن : (من تصدى قبل أو انه فقد تصدى لهوانه)، والهوان هنا هوان الدنيا بأن يضع نفسه موضع السخرية من قبل الآخرين، أو هوان الآخرة بأن يتسبب بإيجاد شبهة في المجتمع من دون طرح حلول بديلة مناسبة، فيكون قد أفسد وقصده الصلاح ولكنه ليس أهلاً له.

فعلى المصلح أن يحصن نفسه علمياً وعملياً حسب دوره وحسب حاجة مجتمعه، وشاهدنا من هذه الرواية أن المصلح عليه أن يعلم آراء وأفكار الآخرين بكل تفاصيلها، وأن يكون قد أعدّ نفسه بشكل كامل لمواجهةها، وأن لا يعتمد على هذا فحسب، وإنما عليه أن يفترض أن رأيه أو فكره قد ترد عليه إشكالات وشبهات، ويضع كل الاحتمالات الواردة ويتهيأ لها بكل جوانبها، عندها يكون واثقاً من نفسه، وهذا ما لاحظناه جلياً في منهج الإمام مع العابد، فالإمام لم يكن يخشى من آراء فقهاء المدينة وعمقها وشموليتها، بل كان يعرفها مسبقاً، فكان واثقاً من مناقشاته، وفي نفس الوقت كان يعلم أن العابد سينقبّل منه، لأن هذا الرجل كان صادقاً في نفسه، بالتالي سيكون متلق منصف، وهذا التشخيص مسبق من قبل الإمام، ونتج هذا الحدث عن مهتد جديد، سيكون هو الآخر داعية متمكن من عقيدته قادر على مواجهة الأفكار الأخرى، فتحصل عندنا قائد للإصلاح يكفي الإمام مؤونة مواجهة الآخرين وسبباً لهداية شطر منهم، وعلى هذا سار الأنبياء وأوصياؤهم (صلوات الله عليهم).

ونفس الأمر كان مع بشر الحافي الذي تحولّ إلى مصلح أخلاقي ترك بصماته في مجتمع بغداد آنذاك، فهو بالرغم من كونه محدثاً، إلا أن أهم صفة عرف بها زهده وموعظته المؤثرة، وقد تميز أمثاله بحكمتهم والنفاتهم إلى موارد لا يلتفت إليها سائر الخلق، فخلدت حكمته، وهو من القلائل الذين بقي له أثر ظاهري واضح في مشهده ببغداد، الذي بُني عليه مسجد سيبقى إلى ما شاء الله، فمن صدّق مع الله صدّق الله معه، ومن تخلى عن الدنيا رغبة لما عند الله أعطاه الله حسن الذكر فيها وحسن ثواب الآخرة. وليس بقاء أثر لبشر الحافي كرامة له فحسب، وإنما لا بد أن نعي عظمة الإمام الكاظم المتسبب بهدايته، ولو أن هذه الكلمة التي وبّخه بها صدرت من غيره لما كان لها أثر يذكر، إذ كما قيل في الحكمة (ما يخرج من القلب يدخل إلى القلب). وفي نفس الوقت لو كانت هذه الكلمة موجهة إلى هارون العباسي أو يحيى بن خالد البرمكي

ومن لَفَّ لَفَّهما لكانت موضع سخرية منهم، فكان لهم خطاب آخر، يأتي ضمن منهج الإمام التبروي، كما سيأتي.

دأب الحكام المتسلطون على رضوخ الآخرين لهم، فشأن الرعية شأن العبيد لا أكثر، وقلما تجد من يقف بوجه السلطان الظالم، فإذا وُجد هؤلاء كانوا من المتميزين، فما هو سبب الرهبة من السلطان الظالم؟، وهل نعتبر حالات الأئمة مع الطغاة متناقضة أو متفاوتة؟، وذلك أننا نجدهم حيناً يتحاشون السلطان أو يتقونه بأشكال متعددة، وحيناً آخر يواجهونه أشد مواجهة.

عندما كان هارون يقدم إلى الحج ولزيارة المدينة كان يخرج لاستقباله وجهاء وعلماء المدينة، وكان الإمام الكاظم ضمن من يقدمون لاستقباله، كما في المرة الأخيرة التي اعتقل فيها الإمام، وحسب المعتاد يسلم عليه الإمام بإمرة المؤمنين ولا يسمعه ما يكره إلا في حالات نادرة تستدعيها الضرورة، كما في حادثة تسليمها على رسول الله (ص) عند القبر الشريف، وكانت الرسالة التي وجهها الإمام في هذه الحادثة واضحة ولها دواعيها كما ذكرتُ آنفاً.

ولكن بعد الاعتقال حاول هارون أن يتفاوض مع الإمام، أو يتلقى منه اعترافاً (شريعياً) بسلطته :
(قال هارون لأبي الحسن (عليه السلام) حين أدخل عليه : ما هذه الدار؟. فقال : هذه دار الفاسقين، قال الله تعالى : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً). فقال له هارون : فدار من هي؟. قال : هي لشيعتنا فترة ولغيرهم فتنة. قال : فما بال صاحب الدار لا يأخذها؟. فقال : أخذت منه عامرة ولا يأخذها إلا معمورة. قال : فأين شيعتك؟. فقرأ أبو الحسن (عليه السلام) : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة). قال : فقال له : فنحن كفار؟. قال : لا، ولكن كما قال الله : (الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار). فغضب عند ذلك وغلظ عليه)).^{٣٩}
هل كان هارون يخشى حقاً من سطوة الإمام وأن يقوم بثورة ضده، أم هناك أمر آخر؟.

لا شك أن هاجس الريبة شأن المريب، يضاف إليه أمر مهم وهو شعور هارون وأضرابه بالنقص والضلالة أمام الإمام الكاظم، فالإمام عالم لا يطمع هارون أن يجاريه في ذلك، كما أن المجتمع الإسلامي يوقر الإمام ويجلُّه وله أتباع في كل مكان، بينما لو لم يكن لهارون السلطة والسيف لما كان يساوي شروى فقير، ولكن المشكلة أن العلم وإحترام المجتمع لا يمكن شراؤه بالمال، ولا يمكن جلبه بالسيف، فلا يبقى أمام أمثال هارون للتعبير عن شعوره بالحقارة والدناءة سوى التنكيل بمن هم أعلى شأناً منهم، إرضاءً لأنفسهم المريضة.

وروى الخطيب البغدادي وغيره :

^{٣٩} — تفسير العياشي، ج ٢ ص ٢٢٩.

((بعث موسى بن جعفر من الحبس رسالة إلى هارون يقول له : لن ينقضي عني يوم من البلاء حتى ينقضي عنك معه يوم من الرخاء، حتى نفضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون)).^{٤٠} وكما قلت آنفاً لا يوجد خطاب آخر يناسب المستوى المتدني الذي وصل إليه هارون، فلا موعظة أو تذكير ينفعان لأمثاله بعد أن تجاوزوا الخطوط الحمراء ومضوا في طريق اللاعودة. فلم يكن سوى وضعه في حجمه المناسب له، وتعريفه بحاله، وهي رسالة يجب إيصالها لهؤلاء الظلمة، ولكن في وقت محدد وليس في كل وقت، كما فعل الإمام، فعندما يكون الظالم في مرحلة الاستعداد لتصفية قائد المجتمع الإسلامي ينبغي أن يواجه بما لا يواجه به عادة، تبقى مشكلة تشخيص هذه المرحلة، فهل هي متروكة لكل أحد أم لا بد من تولي القيادة بنفسها ذلك؟.

ولما لم ينفع النقاش والتهديد في تليين جانب الإمام لجأ هارون إلى أساليب أخرى لا زالت تستخدم حتى عصرنا الحالي، روى ابن شهر آشوب :

((وفي كتاب "الأنوار" قال العامري : إن هارون الرشيد أنفذ إلى موسى بن جعفر جارية حسيمة، لها جمال ووضاءة لتخدمه في السجن، فقال (للخادم) : قل له : (بل أنتم بهديتكم تفرحون) لا حاجة لي في هذه ولا في أمثالها. قال : فاستطار هارون غضباً وقال : ارجع إليه، وقل له : ليس برضاك حبسناك، ولا برضاك أخدمناك، واترك الجارية عنده وانصرف. قال : فمضى ورجع، ثم قام هارون عن مجلسه، وأنفذ الخادم إليه ليتفحص عن حالها، فرأها ساجدة لربها لا ترفع رأسها، تقول : قدوس، سبحانك سبحانك!. فقال هارون : سحرها والله موسى بن جعفر بسحره، علي بها)).^{٤١}

وهنا في ساعاته الأخيرة كان الإمام يمارس دوره في الهداية، فهذه الجارية التي كانت مهمتها عامل ترغيبي تطويعي، انعكست حالها بأن أصبحت متأثرة في الوقت الذي ينبغي فيه أن تكون مؤثرة، والمفترض أنها قدمت لعاية دنيئة، ولكن الإمام تعامل معها كأحد الرعايا المضللين الذين يستحقون الهداية لبساطتهم، شأنها شأن بشر الحافي أو العمري، وما أسرع ما حصلت الاستجابة فانقلبت إلى داعية للإمام بعد خروجها كما ذكر في ابن شهر آشوب المناقب.

وختاماً أعتذر عن أي قصور وتقصير أو تحليل لم يكن في محله، وأرجو من الله القبول، وأن يتسع المقام مستقبلاً لتفصيل أكثر.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على خير الخلق محمد وآله الطاهرين الكرام.

^{٤٠} - البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١٣ ص ٣٣. ورواها ابن الأثير في (الكامل في التاريخ) والذهبي في (سير أعلام النبلاء) وغيرهم.

^{٤١} - مناقب آل أبي طالب، ج ٣ ص ٤١٥.

عباس الزيدي / النجف الأشرف

٢٢ ربيع الأول ١٤٣٠ للهجرة المشرفة

الموافق ١٥ / ٢ / ٢٠١٢ م

ملحق : البحار ج٤٧ ص ٢٥١ : عن الخرائج : روي عن داود بن كثير الرقي قال : وفد خراسان وافد
يكنى أبا جعفر ، واجتمع إليه جماعة من أهل خراسان ، فسألوه أن يحمل لهم أموالا ومتاعا ومسائلهم في
الفتاوى والمشاورة ، فورد الكوفة ونزل وزار أمير المؤمنين عليه السلام ، ورأي في ناحية رجلا حوله
جماعة ، فلما فرغ من زيارته قصدهم فوجدهم شيعة فقهاء يسمعون من الشيخ فقالوا : هو أبو حمزة الثمالي
قال : فبينما نحن جلوس إذ أقبل أعرابي فقال : جئت من المدينة وقد مات جعفر بن محمد عليهما السلام
فشقق أبو حمزة ثم ضرب بيده الأرض ، ثم سأل الأعرابي هل سمعت له بوصية ؟ قال : أوصى إلى ابنه
عبد الله وإلى ابنه موسى ، وإلى المنصور فقال : الحمد لله الذي لم يضلنا ، دل على الصغير وبين علي
الكبير ، وسر الامر العظيم ، ووثب إلى قبر أمير المؤمنين عليه السلام فصلى وصلينا ، ثم أقبلت عليه
وقلت له : فسر لي ما قلته ؟ قال : بين أن الكبير ذو عاهة ودل على الصغير ، أن أدخل يده مع الكبير ،
وسر الامر العظيم بالمنصور ، حتى إذا سأل المنصور من وصيه ؟ قيل أنت ، قال الخراساني : فلم أفهم
جواب ما قاله ، ووردت المدينة ، ومعى المال والثياب والمسائل ، وكان فيما معى درهم دفعته إلي امرأة
تسمى شطيطة ومنديل فقلت لها : أنا أحمل عنك مائة درهم فقالت : إن الله لا يستحي من الحق فعوجت
الدرهم ، وطرحته في بعض الأكياس ، فلما حصلت بالمدينة ، سألت عن الوصي فقيل : عبد الله ابنه ،
فقصدته ، فوجدت بابا مرشوشا مكنوسا عليه بواب فأنكرت ذلك في نفسي واستأذنت ودخلت بعد الاذن ،
فإذا هو جالس في منصبه فأنكرت ذلك أيضا . فقلت : أنت وصي الصادق ، الامام المفترض الطاعة ؟ قال
: نعم قلت : كم في المائتين من الدراهم الزكاة ؟ قال : خمسة دراهم فقلت : وكم في المئة ؟ قال : درهما
ونصف ، قلت : ورجل قال لامرأته : أنت طالق بعدد نجوم السماء تطلق بغير شهود ؟ قال : نعم ، ويكفي
من النجوم رأس الجوزاء ثلاثا ، فتعجبت من جواباته ومجلسه فقال : احمل إلي ما معك ؟ قلت : ما معى
شئ ، وجئت إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله فلما رجعت إلى بيتي إذا أنا بغلام أسود واقف فقال : سلام
عليك ، فرددت عليه السلام قال : أجب من تريد ، فنهضت معه فجاء بي إلى باب دار مهجورة ، ودخل
فأدخلني فرأيت موسى بن جعفر عليه السلام على حصير الصلاة فقال : إلي يا أبا جعفر ، وأجلسني قريبا ،
فرأيت دلائله أدبا وعلما ومنطقا وقال لي : احمل ما معك ، فحملته إلى حضرته ، فأومأ بيده إلى الكيس فقال
لي : افتحه ، ففتحته وقال لي : اقلبه ، فقلبته فظهر درهم شطيطة المعوج فأخذه وقال : افتح تلك الرزمة (١)
ففتحتها وأخذ المنديل منها بيده وقال وهو مقبل علي : إن الله لا يستحيي من الحق يا أبا جعفر اقرأ على
شطيطة السلام مني وادفع إليها هذه الصرة . وقال لي : أردد ما معك إلى من حملة وادفعه إلى أهله ، وقل

قد قبله ووصلكم به ، وأقمت عنده وحادثني وعلمني وقال : ألم يقل لك أبو حمزة الثمالي بظهر الكوفة وأنتم زوار أمير المؤمنين عليه السلام كذا وكذا ؟ قلت : نعم ، قال : كذلك يكون المؤمن إذا نور الله قلبه كان علمه بالوجه ، ثم قال : قم إلى ثقات أصحاب الماضي فسلهم عن نصه . قال أبو جعفر الخراساني : فلقيت جماعة كثيرة منهم شهدوا بالنص على موسى عليه السلام ثم مضى أبو جعفر إلى خراسان ، قال داود الرقي فكاتبني من خراسان إنه وجد جماعة ممن حملوا المال قد صاروا فطحية ، وأنه وجد شطيطة على أمرها تتوقعه يعود ، قال : فلما رأيتها عرفتها سلام مولانا عليها ، وقبوله منها دون غيرها وسلمت إليها الصرة ففرحت وقالت لي أمسك الدراهم معك فإنها لكفني ، فأقامت ثلاثة أيام وتوفيت . بيان : قوله : بين أن الكبير ذو عاهة أي : لو لم يكن الكبير ذا عاهة لأفرده في الوصية فلما أشرك معه الصغير أعلم أنه غير صالح للإمامة ، قوله : أحمل عنك مائة درهم كأن الرجل استحيى عن أن يحمل درهما واحدا لقلته فقال : لا أحمل عنك إلا مائة درهم فأجابته بقوله : إن الله لا يستحيى من الحق فلا تستح من ذلك ، وإنما عوج الدرهم لئلا يلتبس بغيره . قوله عليه السلام : كان علمه بالوجه أي : بالوجه الذي ينبغي أن يعلم به ، أو بوجه الكلام وإيمائه من غير تصريح ، كما ورد أن القرآن ذو وجوه ، أو إذا نظر إلى وجه الرجل [علم] ما في ضميره فيكون ذكره على التنظير .

المصادر

- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، حقيق : تصحيح وتعليق : علي أكبر الغفاري، الطبعة : الخامسة، ١٣٦٣ هـ.ش، دار الكتب الإسلامية - طهران
- مولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، تحقيق : مع تعليقات : الميرزا أبو الحسن الشعراني / ضبط وتصحيح : السيد علي عاشور، الطبعة : الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.
- القمي، أبو الحسن علي بن الحسين بن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة، التحقيق والنشر : في مدرسة الإمام المهدي "عج" بالحوزة العلمية - قم، الطبعة : الأولى، ١٤٠٤ هـ ق - ١٣٦٣ هـ ش.
- المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، الإرشاد في معرفة حجج الله على

- العباد، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، الطبعة : الثانية، سنة الطبع : ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.
- القمي، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الاسلامي (التابعة) لجماعة المدرسين بقم المشرفة (إيران)، محرم الحرام ١٤٠٥ هـ - الموافق ل : مهر ١٣٦٣.
- الصفار، أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ، بصائر الدرجات الكبرى، الناشر : مؤسسة الأعلمي - طهران المطبعة، مطبعة الأحمدي - طهران، طبع في سنة : ١٣٦٢ هـ.ش - ١٤٠٤ هـ.ق.
- الحلبي، الحسن بن سليمان، مختصر بصائر الدرجات، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠ م.
- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء بيروت - لبنان، الطبعة الثانية المصححة، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- الخوئي، السيد أبو القاسم الموسوي، معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، طبع في مطابع مركز نشر الثقافة الإسلامية، وتم التجليد في مؤسسة مهر آئين، الطبعة الخامسة طبعة منقحة ومزودة، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.
- النجاشي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس الأسدي الكوفي، رجال النجاشي، تحقيق : الحجة السيد موسى الشبيري الزنجاني، الناشر : مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين ب (قم المشرفة)، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.
- البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب، تاريخ بغداد، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
- النيسابوري، أبو علي محمد بن الفتال، روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، منشورات الرضي، قم - إيران.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، مقاتل الطالبين، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها في النجف، الطبعة الثانية، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبي، دار صادر - بيروت، الناشر : مؤسسة ونشر فرهنك أهل بيت (ع) - قم.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.
- العصفري، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، حققه وقدم له الأستاذ الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٣ م - ١٤١٤ هـ.

- الحميري، أبو العباس عبد الله بن جعفر القمي، قرب الإسناد، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث – قم، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ.
- الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، نشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، مطبعة بعثت – قم، تاريخ الطبع: ١٤٠٤ هـ.
- الصدوق، محمد بن علي بن الحسين القمي، عيون أخبار الرضا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ م.
- الحلبي، العلامة الحسن بن يوسف بن المطهر، خلاصة الأقوال في معرفة الرجال، التحقيق: فضيلة الشيخ جواد القيومي، الطبعة: الأولى، مؤسسة النشر الإسلامي، قم – إيران، التاريخ: عيد الغدير ١٤١٧ هـ.
- الحسيني، جعفر مرتضى، حياة الإمام الرضا (عليه السلام)، الناشر: دار التبليغ الإسلامي. التوزيع: دار التعارف للمطبوعات، بيروت، سنة الطبع: ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م.
- القمي، عباس، الكنى والألقاب، مكتبة الصدر – طهران.
- العاملي، السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، حققه وأخرجه: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت – لبنان، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م.
- العياشي، محمد بن مسعود بن عياش السلمى السمرقندي، تفسير العياشي، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، نشر وطباعة: المكتبة الإسلامية – طهران، ١٣٨١ هـ.
- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، الكامل في التاريخ، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥ م.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، إشراف وتخريج: شعيب الأرنؤوط / تحقيق: حسين الأسد، الطبعة: التاسعة، سنة الطبع: ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان.
- ابن شهر آشوب، رشيد الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني السروي، مناقب آل أبي طالب، الناشر: مطبعة الحيدرية – النجف الأشرف، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٦ م.